الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب عملية تربوية ناجحة إذا تمت وفق الأسس التربوية التي وضحتها الآيات القرآنية والسنن النبوية، لاسيما إذا أحسن القائمون على التربية فهم الأبعاد التربوية والنفسية لأسلوب الثواب والعقاب، وفي هذا المبحث يقدم الباحث مفهوم الثواب والعقاب، وأهميتهما التربوية، فيما يأتي:

أولاً: تعريف الثواب والعقاب لغةً واصطلاحاً:

تحرير المصطلحات وتحديد المفاهيم مهمة عظيمة في البحث العلمي، ويتوقف عليها التأسيس الصحيح لباقي الجوانب البحثية التي يتناولها الباحث، لهذا فإنني أقدم بين يدي القارئ مفهوم الثواب والعقاب لغة واصطلاحاً:

الثواب والعقاب لغة:

يطلق الثواب على العطاء، قال الفيروزآبادي: " أثابه الله وأثوبه وثوبه مثوبته: أعطاه إياها [١]، ويطلق على عموم الجزاء، قال تعالى {وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}[آل عمران: ١٩٥]، قال الجرجاني: "الثواب هو إعطاء ما يلائم الطبع" [٢] .

وقد يستعمل في جزاء الخير والمثوبة عليه: قال ابن منظور "والثواب جزاء الطاعة وكذلك المثوبة، قال الله تعالى {لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[البقرة: ١٠٣][٣].

كما يستعمل في معنى الجزاء والمثوبة ولو في الشر: قال الرازي : "هما مطلق الجزاء، كذا نقله الأزهري وغيره ويعضده قوله تعالى:{ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} أي: جوزوا [٤].

فالثواب يستعمل للجزاء في الخير أو الشر، إلا أن العرف أكثر استعمال لفظ الثواب في الخير حتى عرف به، فخصصه له، قال ابن الأثير" أثابه، يثيبه، إثابة، والاسم: الثواب، ويكون في الخير والشر، إلا أنه بالخير أخص، وأكثر استعمالا " [٥]، وقال الشنقيطي– رحمه الله – في أضواء البيان: "والثواب : الجزاء مطلقاً على التحقيق، وقول من قال : إن الثواب في اللغة يختص بجزاء الخير بالخير غير صواب، بل يطلق الثواب أيضاً على جزاء الشر بالشر، ومنه قوله تعالى{ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}[المطففين: ٣٦]، وقوله تعالى {قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله}[المائدة:..] [٦]، وقال الأصفهاني: الثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله فيسمي الجزاء ثواباً، والثواب يقال في الخير والشر لكن الأكثر المتعارف في الخير[٧].

أما العقاب: مصدر عاقبته بذنبه معاقبة، وعقابا، إذا أخذته به، والاسم: العقوبة، ويستخدم العقاب في المجازاة على الشر أو على ذنب سابق، قال ابن منظور: "أن تجزي الرجل بما فعل سوءاً، والاسم العقوبة وعاقبة بذنبه معاقبةً وعقاباً أخذه به، وتعقب الرجل اذا أخذته بذنب كان منه [٨]، وقال الخفاجي: " العقاب في أصل اللغة المجازاة على ذنب سابق"[٩].

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

عن قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآداب النصيحة العامة في الإسلام، وفقه الموازنة بين المصالح والمفاسد كما في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ثانياً: الأهمية التربوية للثواب والعقاب في ضوء القرآن والسنة:

الثواب والعقاب أسلوب أقرته الشرائع، وقامت عليه حياة الناس، وهو سنة كونية جارية في الدنيا قبل الآخرة، لما في النفس البشرية من استعداد للخير والشر، قال الله تعالى {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[الشمس: ٧-٨-٩-١٠]، ودور الثواب والعقاب ووظيفته الأساسية تعديل السلوك البشري لمضاعفة وتعزيز دوافع الخير، وإضعاف وتقليل نوازع الشر، حتى يكون الإنسان صالحاً مصلحاً في نفسه ومجتمعه، وهذا الأسلوب يناسب طبيعة الإنسان، لأن "الإنسان يتحكم في سلوكه ويعدل فيه بقدر معرفته بنتائج سلوكه وما يترتب على هذا السلوك من منفعة أو ضرر"(١٨).

وقد حفل القرآن الكريم بالعديد من الألفاظ المتعلقة بمبدأ "الثواب"، فورد لفظ "الثواب" في القرآن – اسما – في تسعة مواضع، منها قوله تعالي {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}[آل عمران: ١٤٥]، كما تكرر ذكر العقاب في القرآن الكريم (٢٩) مرة، وهو نفس عدد لفظ الجحيم، واستخدم القرآن الكريم العديد من الألفاظ التي تفيد معنى العقوبة سواء كانت في الدنيا أم في الآخرة.

ومن خلال لمحة عاجلة إلى سيرة النبي ﷺ وسنته الشريفة يتجلى لنا بوضوح أن الثواب والعقاب من الأساليب التي اعتمدها النبي ﷺ في التربية، بصورة متوازنة وفقه عظيم وقياس دقيق بين المصالح والمفاسد لتحديد الأسلوب الأنسب للتعامل التربوي نوعاً وكمًّاً في المواقف المختلفة.

وتتلخص رؤية الباحث في استخدام الثواب والعقاب في التربية وتهذيب السلوك من منظور إسلامي في النقاط الآتية:

١: الهدف من الثواب والعقاب: تربية الفرد والمجتمع هي الهدف الذي وضع له الثواب والعقاب، وقد تختلف وجهات نظر التربويين حول استخدام العقاب البدني مع الأطفال كوسيلة للتربية، أما " في مواقف السلوك المضاد للمجتمع فثمة نوع من الإجماع حول ضرورة استخدام العقاب فيها، نظراً لأهميته الشديدة...ولمنع الأفراد الآخرين الذين تسول لهم أنفسهم القيام بالسلوك المضاد للمجتمع وأعرافه وعاداته ومعاييره(١٩).

٢: الثواب مقدم على العقاب: اتفق التربويون والفقهاء في القديم والحديث على أن الثواب مقدم على العقاب، وقد وجهنا الإمام الغزالي إلى تقديم الثواب على العقاب في قوله "" مَهْمَا ظَهَرَ مِنَ الصَّبِيِّ خُلُقٌ جَمِيلٌ وَفِعْلٌ مَحْمُودٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُكْرَمَ عَلَيْهِ وَيُجَازَى عَلَيْهِ بِمَا يَفْرَحُ بِهِ وَيُمْدَحُ بَيْنَ أَظْهُرِ النَّاس"(٢٠)، وهذا

أنسب للرفق والرحمة اللازمة في التربية، وتماشياً مع روح الإسلام التي تتسم بالرحمة والعفو"[٢١]، ويشهد لذلك سيرة النبي ﷺ وأمره بالرفق في كل شيءٍ، فقال ﷺ "إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه"[٢٢]، ولم يضرب رسول الله ﷺ شيئاً بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى، كما في حديث عائشة ﵂ قال:"ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل"[٢٣]، ويستنبط الباحث تقديم الثواب على العقاب وترك العقاب ما أمكن من حديث النبي ﷺ "ادرؤوا الحدود ما استطعتم"[٢٤]، هذا الحديث دليل واضح على عدم الرغبة في العقاب، لأنه إذا كان الحد الشرعي يدرؤ الإنسان بأدنى شبهة فإن دفع العقاب التربوي من باب أولى؛ فيجب أن يكون العقاب سالماً من الشبهات التي تمنع المربي من استخدامه، سواء أكانت الشبهات في سببه أو في طريقته ودرجته ونوعه أو في نية المربي ودافعه إليه، وإن لم يسلم العقاب من ذلك كله فلا يجوز استخدامه، ويجب العدول عنه إلى الأساليب التربوية الأخرى.

٣: يجب اختيار المبدأ المناسب للموقف والعوامل المحيطة، حتى لا يضر المربي وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، وذلك عين الحكمة المأمور بها المسلم في حياته كلها، فالبداية: المدح والثناء والألفة والترغيب، التغافل والإيحاش والترك، الذم والتوبيخ والترهيب، ثم العقوبة، وقد تكلم الإمام الغزالي في تصحيح السلوك الخطأ على طرق يختار منها المربي ما يراه مناسباً للمقام، فقد يكتفي المعلم بالتصريح والتلميح، المعاتبة سرًّا، الجهر بالعتاب إذا خاف من غيره تقليد الخطأ، العقاب بالطريقة المناسبة[٢٥]، وقال هارون الرشيد لمؤدب ولده الأمين: " وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة"[٢٦].

٤: يجوز استخدام العقاب وفق معايير وشروط شرعية: العقاب له دور مهم في التربية ويكون بعد الثواب والأخذ بالوسائل التي تدفع للخير وتمنع من الشر، فإن أبي إلا الغواية وفعل الخطأ جاء العقاب لوقف الخطأ والرجوع بالنفس البشرية إلى رشدها، ويشترط في العقاب أن يكون أسلوباً يمارس وفق الضوابط الموجهة لاستخدامه والضامنة لتحقيق إيجابياته وليس شهوة ولا تشفياً ولا إخراجاً لكبت المعلم ونفسيته المشوهة على طلابه.

٥: آخر العقاب الضرب: حثنا النبي ﷺ على استخدام الإيحاء النفسي بالعقاب لعله يمنع الخطأ قبل وقوعه فلا نحتاج معه إلى العقاب الفعلي، قال رسول الله ﷺ "عَلِّقُوا السَّوْطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ ، فَإِنَّهُ أَدَبٌ لَهُمْ"[٢٧]، ولكن إذا كان الخطأ مما يوجب الضرب، أو أن الوسائل الأخرى لم تؤثر في التربية ولم تمنع السلوك الخاطئ، فلا بأس باستخدام العقاب بالضرب في عظائم الأمور وفي إطار الشروط والضوابط التي أقرتها الشريعة، كما في حديث النبي ﷺ "مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ

أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ"[٢٨]، فالعقاب بالضرب يستخدم في العملية التربوية من قبيل: آخر العلاج الكي، ولا يكون إلا لضرورة، وبشروط معلومة، حتى لا يكون ضرب أولاد المسلمين لراحة نفسه، أو منفذاً لإخراج كبت المعلم ، وحتى لا يتحول العقاب التربوي إلى قهر وظلم أو جريمة، ومن هذه الشروط: أنه لا يجوز ضرب الأطفال قبل العاشرة لقوله ﷺ: "واضربوهم عليها وهم أبناء عشر"[٢٩]، ولا يجوز ضرب الطلاب الذين تقدمت أعمارهم، وأن يكون الضرب على ذنب حقيقي وليس بشك ولا شبهة، وأن لا يكون شديداً مبرحاً، وأن لا يزيد على ثلاث ضربات إلا باستئذان ولي الأمر، وأن لا يكون الضرب على الوجه ولا في الأماكن الحساسة في الجسم، وأن تكون آلة الضرب عوداً رطبا مأمونا[٣٠].

المبحث الثاني: سورة الكهف من منظور تربوي.

سورة الكهف من السور العظيمة التي نزلت في مكة، وقد وصف ابن مسعود ﷺ سورة الإسراء والكهف ومريم قائلاً "إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي"[٣١]، وهدف سورة الكهف تربية الفئة المؤمنة تربية إيمانية تناسب ما ينتظرهم من أدوار جسيمة لخدمة الدين الإسلامي العظيم، والتربية في الإسلام: أسلوب صناعة الإنسان وبناء المجتمع على أساس من وحدة العقيدة وقوة الفضيلة[٣٢]، لذلك تضمنت سورة الكهف أهدافاً وأبعاداً تربوية عظيمة، يجليها الباحث في النقاط الاتية:

اسم السورة وأثره التربوي: تسمى هذه السورة الكريمة سورة الكهف أو سورة أصحاب الكهف[٣٣]، وكلا الاسمين له بعد تربوي، أما التسمية **بسورة الكهف** فهو كهف حقيقي وهو المكان "الذي تم اللجوء إليه لحمايتهم من الفتنة التي تعرض لها الفتية فلجئوا إلى مكان حصين عصمهم من الأعين وحفظ عليهم دينهم وعقائدهم"[٣٤]، وهذا يغرس في نفس القارئ المتدبر لهذه السورة العظيمة الفاهم لمغازيها ودقائق معانيها أن من عمل بما تضمنته السورة الكريمة كان له "كهف معنوي من عناية الله سبحانه وتعالى وحفظه وستره فلا تؤثر فيه الفتن المعروضة ولو كانت مثل قطع الليل المظلم"[٣٥]، وأما التسمية بسورة أصحاب الكهف –وهم الفتية الذين تركوا الملك والسلطان وفروا بدينهم طالبين رحمة الله والرشد في أمرهم– ؛ فهذه تربية كريمة للفئة المؤمنة بالثبات على العقيدة والقيام بالدين مهما كانت العقبات، قال تعالى {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} [الكهف: ١٣، ١٤].

فضائل السورة وأثرها التربوي: لأهمية هذه السورة المباركة ذكرت الأحاديث لها فضائل متعددة تتعلق بقراءتها أو قراءة بعض آياتها، ومن هذه الفضائل ما يأتي:

- قراءة سورة الكهف سبب في حصول السكينة: كما في حديث البراء بن عازب ، رضي الله عنهما قرأ رجل الكهف وفي الدار الدابة فجعلت تنفر فسلم فإذا ضبابة، أو سحابة – غشيته؛ فذكره للنبي

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

المكاشفات والإلهامات، فرغم سفر موسى للخضر بأمر من الله تعالى ليقف على بعض العلوم التي أعطاها الله غيره، إلا أن موسى عليه السلام اعترض على ما رأى مما يخالف أحكام التوراة التي أنزلها الله عليه، فكان اعتراض موسى على ما رأى من غريب أفعال الخضر يوافق أحكام التوراة في عدم السكوت على منكر، قال البقاعي "من العهد الوثيق المكرر في جميع أسفار التوراة بعد إثباته في لوحي الشهادة في العشر كلمات –التي نسبتها من التوراة كنسبة الفاتحة من القرآن– بالأمر القطعي أنه لا يقر على منكر"، وقد برأ الخضر ساحته من المخالفة وعلل أفعاله قائلاً: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: ٨٢]، أي أن الخضر مأمور بما فعل، كما أن موسى عليه السلام مأمور أن يعمل بالتوراة وما فيها من أحكام، ثالثاً: جملة من الآخلاق العالية في طلب العلم والحرص عليه والصبر في مشاق تحصيله والتلطف مع المعلم كما يظهر من حال موسى عليه السلام، رابعاً: حكم القضاء والقضاء مما لا تدركه العقول ومما لا تكلف الشرائع بالبحث عنه، بل تربي الشرائع أتباعها على التسليم للقضاء والقدر لأنه يعكس جزءاً من علم الله تعالى، "فالمقابلة في قصة موسى والخضر كانت بين قيم صحيحة ظاهرة وقيم صحيحة أخرى غيبية في علم الله المحيط بالحقائق ومآل الأمور"(٦٢).

قصة ذي القرنين: فيها فوائد تربوية من جوانب عديدة، منها: الأخذ بالأسباب مع عدم الغرور بقوة العلم والأسباب المادية، التي سخرها الله له، بما يوقف الإنسان عند حدود بشريته ويؤمن أن هذا الخالق العظيم وضع في الكون أسباباً لا تنحصر في الآلات التي يصنعها الإنسان(٦٣)، ومنها: ترسيخ خلق التواضع وطلب الدار الآخرة، فقد كان ذو القرنين ملكاً له قوة ومعه أسباب السيادة والتمكين مما يفتح مجالاً للتعالى أو الفخر والكبر، "فيأتي التواضع الذي لا يقوى عليه إلا الصالحون من الناس، الذين ألجموا أنفسهم وعلموا أنه لولا توفيق الله وإعانته ومدده ما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً"(٦٤).

المبحث الثالث : تطبيقات الثواب والعقاب في ضوء سورة الكهف وآثارها التربوية.

اعتمدت سورة الكهف أساليب تربوية كثيرة، ومن أهم الأساليب التي اعتمدتها سورة الكهف أسلوب الثواب والعقاب، وقد تعددت تطبيقات الثواب والعقاب في سورة الكهف، لعظيم أثر الثواب والعقاب في توجيه السلوك وضبط الأخلاق وتغيير الطبائع، وسوف نشير لتطبيقات الثواب والعقاب في سورة الكهف فيما يأتي:

الثواب والعقاب في أول السورة وفي آخرها:

ركزت السورة الكريمة على إظهار ثواب المؤمنين وبيان عقاب الكافرين في بداية السورة وفي أواخرها ليكون الثواب والعقاب المذكور هو أول وآخر ما يطرق سمع القارئ ويثبت في عقله، ففي بداية السورة قال الله تعالى: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا، مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا وَيُنْذِرَ

الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} [الكهف: ٢-٣-٤]، قال ابن كثير: "{لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ} أَيْ: لِمَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، يُنْذِرُهُ بَأْسًا شَدِيدًا، عُقُوبَةً عَاجِلَةً فِي الدُّنْيَا وَآجِلَةً فِي الْآخِرَةِ، {وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا}: أَيْ: مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ جَمِيلَةً، {مَاكِثِينَ فِيهِ} فِي ثَوَابِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ، خَالِدِينَ فِيهِ {أَبَدًا} دَائِمًا لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا انْقِضَاءَ"[٦٥]، وفي أواخر السورة يقول الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا *إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} [الكهف: ٥-٦-٧]، قال ابن كثير "يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَفْعَلُهُ بِالْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ، أَيْ: يُبْرِزُهَا لَهُمْ وَيُظْهِرُهَا، لِيَرَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ قَبْلَ دُخُولِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ لَهُمْ، كما يخبر تَعَالَى عَنْ عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوهم فيما جاؤوا بِهِ بِأَنَّ لَهُمْ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ"[٦٦].

الثواب والعقاب في قصة أصحاب الكهف والتعقيب عليها:

في قصة أصحاب الكهف دروس تطبيقية لمبدأ الثواب والعقاب "حيث أثابهم الله بثباتهم على الإيمان أن نجاهم من بطش الحاكم الكافر وحفظ لهم أجسامهم وحواسهم لمدة تزيد عن أكثر من ثلاثمائة عام، وخلد ذكرهم في العالمين ولم يقبض أرواحهم سبحانه وتعالي إلا بعد أن علم الناس قصتهم وتضحيتهم حفاظاً علي دينهم وعبادتهم لله؛ وهذا من باب التقدير والثواب المعنوي بالإضافة للأجر والثواب الذي أعده الله لهم في الآخرة كما خلد ذكر الكلب الذي كان يحرسهم إكراماً لهم وجعله في قرآن يتلي إلي يوم القيامة[٦٧]، قال ابن كثير: " وَشَمَلَتْ كَلْبَهُمْ بَرَكَتُهُمْ، فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ. وَهَذَا فَائِدَةُ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ؛ فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَبَرٌ وَشَأْنٌ"[٦٨].

وبعد ختام قصة أصحاب الكهف يأتي التعقيب عليها بالدعوة للإيمان وترك الكفر، ومقارنة بين ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين، وتهديد شديد بما ينتظر الكافر من العقاب، وبشرى بما ينتظر المؤمن في الآخرة من ثواب، قال الله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف: ٢٠-٣٠-٣١]، قال ابن كثير: "هَذَا مِنْ بَابِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {إِنَّا أَعْتَدْنَا} أَيْ: أَرْصَدْنَا {لِلظَّالِمِينَ} وَهُمُ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَكِتَابِهِ،...ولَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ، ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ، الَّذِينَ آمَنُوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا بِهِ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَلَهُمْ {جَنَّاتُ عَدْنٍ} وَالْعَدْنُ: الْإِقَامَةُ"[٦٩].

الثواب والعقاب في قصة صاحب الجنتين والتعقيب عليها:

صاحب الجنتين رجل غره ماله، وخدعه ما أعطاه الله من فضله، ونسي قدرة الله تعالى، فكفر بالله رب العالمين، ولم يسمع لصاحبه الناصح الأمين، وقد حذره صاحبه قدرة الله وحلول عقابه ونزول عذابه إذا لم يتب ويرجع إلى الله تعالى،{فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا}[الكهف: ٤٠-٤١]. حذره صاحبه المؤمن نزول العقاب على جنتيه في صورة مَطَر عَظِيم مُزْعِج، يُقْلِعُ زَرْعَهَا وَأَشْجَارَهَا؛ حتى تصبح بَلْقَعًا تُرَابًا أَمْلَسَ، لَا يَثْبُتُ فِيهِ قَدم، ولا ينبت شيئاً، أو يكون العقاب بغور الماء في الأرض فتيبس زروعه بعد نضرتها وتجف بعد جمالها وخضرتها، ومع ذلك لم ينته صاحب الجنتين عن كفره؛ فجاء مشهد العقاب على كفره وكبره، وإذا بجنتيه تصبح صعيداً زلقاً، قال الله تعالى: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا}[الكهف: ٤٢-٤٣-٤٤]، وَقَعَ بِهَذَا الْكَافِرِ مَا كَانَ يَحْذَرُ، مِمَّا خَوَّفه بِهِ الْمُؤْمِنُ مِنْ إِرْسَالِ الْحُسْبَانِ عَلَى جَنَّتِهِ، الَّتِي اغْتَرَّ بِهَا وَأَلْهَتْهُ عَنِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ[٧٠]. فصاحب الجنتين الذي جحد بنعمة الله عليه ...عوقب بزوال النعم التي يعيش فيها ليعلم الإنسان أن الخطأ له عقاب حتي وإن تم تأجيله بحكمة الله فهو واقع في الدنيا وفي الآخرة، ومن الأمور الهامة التي تتعلق بالعقاب الدنيوي أنه لا يكون بغرض التعذيب وإلحاق الضرر بالمعاقب، ولكن العقاب يكون بغرض إعادة الإنسان إلي المسار الصحيح طالما أن السبل السلمية لم تجدِ نفعاً أو فائدة [٧١]، ولهذا علق السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات قائلاً: "ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول"[٧٢]، ويبقى القطع بتوبة الرجل في علم الله تعالى لا يقوم عليه دليل، والهدف من السياق ذكر العقاب الذي حلَّ به لما تكبر بما أعطاه الله تعالى، "وسنة الله في خلقه أن لا يزيل النعمة عن العباد بمجرد كفرهم، فقد يمتع الكافر طول حياته بماله وصحته وولده، وفي ذلك استدراج له، أما إذا أصبحت الصحة والثروة والأتباع وسيلة طغيان واحتقار وإذلال لعباد الله الصالحين، فإن عقوبة الله العاجلة له بالمرصاد[٧٣].

وكما ذكرت الآيات الكريمة في هذه القصة عقاب من أخطأ وتكبر بماله وكفر بالله تعالى، فإن السياق القرآني لا يخلو من إشارة لثواب صاحبه المؤمن، وللمؤمنين جميعاً، ومن هذه الإشارات لثواب المؤمنين في التعقيب على قصة صاحب الجنتين:

قول الله تعالى: {هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} قال السعدي رحمه الله "أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحا، وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح أن الولاية لله الحق، فمن كان مؤمنا به تقيا، كان له وليا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه، فثوابه الدنيوي والأخروي"(٧٤).

وقول الله تعالى: {هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} أي أن ما يعطيه الله تعالى لوليه المؤمن الموفق للأعمال الخالصة لوجه الله خير ثواباً وخير عاقبة، "فثَوَابُهَا خَيْرٌ، وَعَاقِبَتُهَا حَمِيدَةٌ رَشِيدَةٌ، وَكُلُّهَا خَيْرٌ"(٧٥).

وقول الله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: ٤٦]، وهذه الباقيات الصالحات تُحمل على العموم فيكون معناها العبادات وذكر الله تعالى وجميع أعمال الخير، وتحمل على معنى خاص فيراد بها بعض الأذكار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يداوم عليها لاسيما كلمات: "سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ"(٧٦)، والإشارة في ذكر ثوابها والخير الذي يؤمله المؤمن المخلص فيها، بعكس صاحب المال والبنون، فإنهما زينة الحياة الدنيا فقط، والدنيا مهما عظمت حتماً ستصبح يوماً {هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [الكهف: ٤٥]، وفي هذه الإشارة لثواب الباقيات الصالحات دفع للمسلم وتوجيه له أن يكون تنافسه في تحصيل الباقيات الصالحات التي يرجو ثوابها في الآخرة أكثر من تنافسه في تحصيل متاع الحياة الدنيا، وهكذا كلما تأمل المسلم في قصة ذي الجنتين وتعقيب الآيات عليها "يعلم أن العمل الصالح والطاعة والعبادة هي مظهر التكريم، والمعصية والتكبر والبعد عن الله هو عين الهوان في الدنيا والآخرة"(٧٧).

الثواب والعقاب في سياق قصة سجود الملائكة لآدم عليه السلام:

قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً} [الكهف: ٥٠]، لم تتطرق سورة الكهف لتفاصيل قصة آدم ورفض إبليس السجود له إلا بقدر ما يلزم ذكره هنا من المعاني التربوية العظيمة، وفي ذكر القصة في سورة الكهف زجر للإنسان عن اتباع الشيطان أو اتخاذه ولياً له من دون الرحمن، ومناسبتها لقصة صاحب الجنتين تشابه الدافع النفسي في القصتين، فالذي دفع صاحب الجنتين للكفر هو تكبره بماله وما أعطاه الله من فضله، وكذلك دافع الشيطان لرفض السجود لآدم -عليه

السلام– هو الكبر والنظر إلى أصله والافتخار به، مع نسيانه أنه كان من الجن فرفعه الله إلى رتبة الملائكة فنسي فضل الله عليه وغلب عليه طبعه فرفض السجود لآدم وعصى أمر ربه فحلت عليه العقوبة ونزل عليه العذاب، والعقاب الذي نلاحظه في مجموع الآيات والسور التي تناولت قصة آدم وإبليس نوعان:

عقاب إبليس: تكبر إبليس، وافتخر بأصله، وكفر بربه، وعصى أمر الله بالسجود لآدم؛ فعاقبه الله تعالى بأن طرده من رحمته ووعده النار يوم القيامة خالداً مخلداً فيها أبداً، قال الله تعالى{قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}[الأعراف: ١٨].

عقاب آدم: لما مُنع آدم من الأكل من الشجرة، ووسوس له الشيطان بالأكل منها وأقسم له بالله إنه لمن الناصحين، اغتر آدم بقسم الشيطان له فأكل من الشجرة فعاقبه الله تعالى بقوله{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}[البقرة: ٣٨] "ولحكمة يعلمها الله تعالى لم يرتدع عن الأكل من الشجرة، ولم يعِ تمام الوعي عاقبة الخطيئة، أو يقدر نتائجها حق قدرها، إلا بعد أن وقع في هوة العصيان، وذاق مرارة الحرمان من الجنة وعانى آلام الإهباط إلى الأرض، حينئذ فقط علم آدم ما لم يكن يعلم، فلجأ إلى الله هو وزوجه ضارعين طالبين الرحمة والتوبة والغفران: {قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين»}[الأعراف: ٢٣] (٧٨) .

فكان العقاب لآدم وهبوطه إلى الأرض تهذيباً وتربية وتهيأة لدخول الجنة بعد ذلك عن جدارة واستحقاق، ومع ذلك جرت مراسم العقاب دلالة علي أن تطبيق مبدأ الثواب والعقاب مهم وضروري، وبه تستقيم وتستقر الأمور، ومن خلاله تتهذب النفوس ويتغير السلوك، وفيها دليل على أن العقاب يختلف باختلاف الخطأ وقدره وبواعثه، فقد كان خطأ آدم ضعفاً أتبعه توبة وندماً، أما إبليس فإن خطأه كبر وكفر وعناد لذلك لم ترج له توبة.

عقاب من يتبع الشيطان فيكفر بالله تعالى: وهذا النوع من العقاب هو الذي ذكرته سورة الكهف تخويفاً لكفار قريش في مكة وغيرهم إلى يوم القيامة، قال الله تعالى{وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا}[الكهف: ٥٢-٥٣]، في هاتين الآيتين الكريمتين تركيز على العقاب النفسي وتصوير لمدى الحسرة والحزن والخزي الذي يجده الكافر في أرض المحشر عندما يخاطب الله تعالى المشركين على رؤوس الخلائق تقريعاً لهم وتوبيخاً ليسألهم عن شركائهم الذين زعموهم آلهة في الدنيا، لينادوا عليهم فتزداد عليهم الحسرة ويعظم عليهم الخذلان إذ لا تجيبهم آلهتهم من دون الله شيئاً، ولا يستطيعون الوصول إليهم، وبينهم موبق ومهلك لا يجاوزنه، ثم يتضاعف العذاب النفسي عليهم إذا "عَايَنُوا جَهَنَّمَ حِينَ جِيءَ بِهَا تُقَادُ بِسَبْعِينَ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ

الثواب والعقاب وآثارهما التربوية في ضوء سورة الكهف ـــــــ